العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الإعلام

سُبُل الرَشَاد

سَبِيْل

عِبَد المُنعِمْ حَسَن السُوداني

اعداد

المشغل النقدي لجريدة صدى الروضتين

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الإعلام
وحدة الدراسات والنشرات
كربلاء المقدسة
ص.ب (٢٣٣)
هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: سبل الرشاد / سبيل عبد المنعم حسن السوداني-

تاليف: محمد حسين العطار

التصميم والاخراج الطباعي: علاء الاسدي

المطبعة : دار الضياء - النجف الاشرف.

الطبعة الاولى.

عدد النسخ: ٢٠٠٠

شهر ربيع الثاني ١٤٣١هـ - اذار ٢٠١٠م

إني أجد اللحظة كلَّ شيء حاضراً للتدوين؛ القلب، والروح، والعقل، لدخول العاصفة بمتعة الهدوء الذي يعصف عارما في ثنايا كل قلق. الكتابة عن تجربة انسانية تفاعلت في ثنايا الروح لها من المؤكد ما ينفع في عالم التجارب، ويختلف بالطبع عن مفهوم اي سيرة ذاتية لموظف يقدم اوراقه عساها تنال خفقات الدهشة...

هناك في مجلس صحبة في محل صديق، جمعتنا الصحبة دون مرتكزات الانتماء الضيقة، فكان الحديث والحوار غير معني بالاتجاهات السياسية او التفرعات المذهبية، وانما كان الحديث في المنطوق العام لمكونات الإيمان... وفجأة اتجه نحوي ما يتسرب من عمق الهاجس؛ شاب غض فتي يلقي تحية الإسلام، ويجلس ليستمع الى محاورة زاخرة بالمعنى، تتنوع فيها الأحاديث لتكون قضية التشيع أحد روافدها.

كنت أيامها أعيش حومة صراع نفسي، فيما يخص مسألة المذاهب، ومحتوى تكويناتها الفكرية، والمغزى السياسي الذي أسس مفاهيم غريبة عن المنطوق العام للدين؛ كعملية الالغاء، والتكفير، وفتاوى القتل. كنت ابحث عن كل شيء يقع تحت يدي، واقرأ مختلف المصادر لأصل الى موقف مقنع معبر عن انتمائي، ورفضي لقيود التقليد الاعمى، فلذلك نظرت الى هذا الشاب بشيء من الاستغراب.

وسألت روحي: كيف يمكن لإنسان أن يحصر قضية جوهرية؛ مثل الايمان بالله بأمور مظهرية تافهة، كيف له أن يعبّر عن معناه الايماني بأثواب قصيرة، تكاد تصل حد الركبتين، تمثل عندهم القيمة الأسمى للدين.

رأيت الهلع الممزوج بالتيه في عينيه، أحسسته يرعد ويزبد في دواخله؛ كلما سمع مفردة شيعي يريد ان يدخل نفسه عنوة في الحوار، وكذلك كان فعله حيث رفع رأسه ليستعرض الشك والريبة، والتهم الرخيصة الجاهزة، فقال دون مقدمات تذكر:-

يبدو ان بعض فرق الضلالة أثرت عليك...

انفعالات طائشة فيها روح الجهالة، والعنت المكنون في اعماق الذات المريضة العاجزة عن تقبل الحقائق، والارتماء في حضن معلبات التفكير. تفنن مهني معروف

يجيده امثال هذا الفتى من المتورطين بحرفنة «المسلفن» من العبارات...

وعاد بعد هذا الهوس ليسألني:ـ

من أي الفرق انت؟

يبدو انك من جماعة الشيعة!

يقولها بشيء من الحرقة والألم، كدنا نسمع خفقات هذا الجنون من حدة الغيظ، وانا أصبِّر الروح؛ إذ لابد من اجتياز هذه السطحيات والجمل الببغائية المعلبة والجاهزة للاستهلاك...

قلت حينها:-

هي تهمة لا أنكرها، وشرف لا أدَّعيه...

ويبدو أني نجحت بأن اشعل أوار الغضب فيه، حتى تجمع الأصدقاء والمعارف، ووجوه لا أعرفها، ليستمعوا الى هذا الصريخ الذي لا ينفع بشيء...

قلت بهدوء:ـ إذا كان عندك إشكال تفضل لنتناقش بكل أدب، ولنجعلها مناظرة تمنحنا رؤية الحقيقة... قلتها وانا واثق ان مثل هذه الجماجم الفارغة تقترب الى التعالي، فترى نفسها أكبر من الآخرين...

سألته:ـ من اين تبدأ؟

وأنا أحمل في نفسي شيئاً له ندرة لايمكن أن يمتلكها من يمتلك مثل هذه العنجهية التي تفترش مساحة واسعة من الالغاء والنفي. هو يحلم بطبيعة الأمر ان يلوي عنقي امام الناس، وانا أحنو عليه. أتمنى فعلا أن يدرك هذا الشاب معنى الحقيقة التي بدأت تواجهني؛ فلا بأس أن يعيش القلق الذي عشته من اجل ان يصل الى قناعة خاصة به، دون أن يصبح ما لديه مجرد تلقينات جوفاء.

كل ما يملكه الآن هي مجرد أسئلة ضيقة الرؤى، تقبع ضمن مساحات معروفة ومفهومة، وهي من الأمور الجاهزة التي يتم التشاغل بها في مثل هذه المدارس الإلغائية؛ وكأنها تمثل كلَّ ما موجود في العالم من حقائق. وتجربتي في هذا المجال لم تكن بالتجربة

التي يُستهان بها، فهذه الأسئلة كنت أعتنقها قبله، ولايمكن له ان يفاجئني بشيء، فلذلك صرت انظر الى الناس الذين احاطونا ليشهدوا الصراع بروح المنازعات، أرى ان الأجوبة لابد ان تكون عامة ومفهومة؛ كي لا تتعرض الى اهواء تفسيرية وتحليلية، قد يقسر عليها ما يثير الحنق.

المسألة حساسة جدا؛ أي عاهة في تفكير أحدهم، سيعني أنه لابد من تحويل المحاورة الى مفهوم مذهبي؛ وكالمعتاد سيصبح المحاور متهماً بالتشيع مهما كانت هويته... وفي الحقيقة انهم خالفوا الاسلام بصورته الكلية، لكنهم راوغوا عند حدود التخصيص الطائفي...

قلت:ـ

ما رأيك أن نبدأ بالتوحيد الذي به تتشدقون كثيرا، وبسبب فهمكم الخاطىء تضعون كل الناس في جبهة المشركين!

وافقني مباشرة فسألته:ـ

ماذا تقولون في الله خالق الكون، وفي صفاته؟

أجابني:ـ نحن نقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا تجوز عبادة غيره.

عارضته فوراً بسؤال لابد أن يُسال؛ فالقضية أكبر من عرضها في سوق الخطابة والادعاء:ـ وهل يختلف اثنان من المسلمين في ذلك؟

أجابني وبشيء من الاسترخاء، بحيث تضحكني محاولته هضم الكلمة في فمه حين يتحدث:ـ الحقيقة الجميع يقول هذا الكلام، ولكن تطبيقهم يخالف أقوالهم، فهم في الواقع مشركون؛ لأنهم يتوسلون بالأموات، ويخضعون لغير الله سبحانه تعالى، ويشركون به في طلب الحاجات والخضوع لغير الله تعالى، وغيرها من الأشياء التي ذكرتها تعني عبادة غيره تعالى.

****

مع نفسي قلت: إن هذا المفهوم السطحي هو كل ما يمتلكون من عمق. تفسير

يتيم لايريدون له مفهوما آخر مهما كانت أدلّته؛ جعلني أشعر أن ببغاءً يشاطرني الحوار، كما أرى أمامي فضاء المعنى يفتح آفاقه بتوهجات أجوبة، لاتحتاج الى كثير جهد...

قلت:ـ حسنا طالما الجميع يقول، فالجميع عندكم لابد أن يخرج من دائرة الشرك؛ لكونهم مسلمين يؤمنون بالله تعالى، وتبقى القضية بحاجة الى ان نكتشف شركهم؛ كي نقول عنهم «أشركوا« نحتاج الى ادلة قاطعة؛ فنكران الإيمان ليست بالمسألة الهينة التي تحتكمها أمزجة وآراء سطحية، بل بحاجة إلى التأكيد من انهم يعبدون غير الله، ويشركون بعبادته حينها نستطيع ان نقول انهم زاغوا بالإيمان، وابتعدوا عن طاعة الله واشركوا.

تغيرت أشياء كثيرة في عيون المتجمعين حولنا، توهج وميض الجمال، ورأيت من يهمس بأذن صاحبه فرحا بهذا الجواب، فمن الواضح جدا أن اسلوب هذا الوهابي الخشن قد سبب شيئا من الامتعاض العام لدى الحضور.

أتممت حديثي لأوضح له أن ما يفعل من افعال التعظيم والتوسل واحترام الائمة، فهذا ليس من الشرك في شيء؛ لأن العبادة تعني الخضوع والتذلل لمن نعتقد أنه إله مستقل في فعله، لايحتاج الى غيره،وأما مجرد الخضوع والتذلل والاحترام، فلا يعتبر عبادة، وقد أمرنا به القرآن كالتذلل للوالدين، والتذلل للمؤمنين، بل ان الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، وبناء على ذلك لا يكون احترام الأولياء، وزيارة قبورهم، والتوسل بهم، وتعظيمهم، شركا بالله؛لأنهم لايرون أن هؤلاء الأئمة آلهة يُعبدون مع الله؛ بل هم عباد أكرمهم الله بفضله، فعطاؤهم من الله، وليس لهم قدرة ذاتية مستقلة.

اعترض الشاب الوهابي بقوة:ـ

ولماذا لايسألون اللهَ مباشرة، هل هناك مانع، والله سبحانه تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

فأجبته:ـ

وقال الله تعالى أيضا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ثم إنك إذا مرضت لماذا تذهب الى الطبيب؟

ألم يقل الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ؟

أربكه الصمتُ قليلا وصاح:ـ

هذه ضرورة من ضرورات الحياة.

قلت:ـ وهذه أيضاً سنة وسبب به نبتغي الحاجات.

****

أعتقد أني فككت عقدة المشكلة كلها، فهذه الحجج المفتعلة غير مهمة، لكنها تشكل الثقل الأكبر من ارائهم المرتبكة، ورغم كل هذا وددت أن أتأكد من التأثير بأصحاب الفهم الطبيعي، فسألت الحضور:ـ

هل نطقت الحقيقة؟

هل ثمة خطأ في كلامي؟

فكان الجواب مُقرّاً بما نطقت، وزاد احد الحاضرين – وهو شاب يعشق الصوفية – رأيا مهما إذ قال:ـ

هذه الأشياء ليست جديدة أو مبتدعة؛ وانما هي موجودة منذ زمن الرسالة والوحي، وهكذا علمنا الرسول ﷺ وسار عليها الصحابة والتابعون وكل المسلمين، الى ان جاء ابن تيمية وتلميذه محمد بن عبد الوهاب ببدعهم المبتكرة والمستحدثة والغريبة على الاسلام...

قال السلفي وهو يزفر حسرة ألم مغرورة:ـ

للأسف تتحدثون بلا علم، وضيق الوقت لايعطيني فسحة للنقاش، ومثل هذه الأمور تحتاج الى وقفات تأملية أطول، والى مناقشات أكثر، وفي وقت آخر سأكون مستعداً للنقاش.

****

أحسست أن الخدر قد سرى في ذهنه، ودبّ النحولُ في معلوماته... تراءى لي أن شيئا ما يهوي أمام عيني، لابد أن أصل معه الى تفاصيل الخلل الذي يعتريهم...

:ـ ماذا تقولون في صفات الله تعالى؟

أجاب:ـ نحن لا نقول، إنما نصفه بما وصف به نفسه في القرآن الكريم.

سألته حينها:ـ وبماذا وصف نفسه، هل قال بأنه جسم يتحرك أو ان له يدا وساقا وعينين؟

أجابني دون ان يتمهل في الجواب:ـ

نعم هذا ما جاء في القرآن الكريم، لقد قال اللهُ تعالى: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وكثير من الآيات الأخرى التي تصف الله لنا فنقول: ان لله يدا...

قلت له، وأنا ابتهجُ بسرده المتوقع:ـ

إن قولك هذا يستلزم التجسيم، والله ليس بجسم، وهو ليس كمخلوقاته، ثم ماهو الفرق بينكم وبين مشركي مكة، أولئك نحتوا أصنامهم بأيديهم وعبدوها، وأنتم نحتم اصناما بعقولكم، وظلت في أذهانكم تعبدونها، لقد جعلتم لله يدا وساقا وعينين، ومساحة يتحرك بها، وبكلمة واحدة تبين عطلكم؛ ان هذه الآيات مجازية وترمز لمعان أخريات.

فأجابني بفرح وبسرعة، كأنه عثر على كنز الحقيقة، وقال بشيء من الزهو:ـ

نحن لانؤمن بالمجازات والتأويلات في القرآن.

قلت له حينها:ـ

إذن عليَّ ان أسألك رأيك في من يكون في الدنيا أعمى، هل يبعث كذلك أعمى؟

قال:ـ لا...

قلت:ـ ماذا تفسر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وانتم تقولون لا مجاز في القرآن. وبناء على استنتاجكم ان يد الله ستهلك، وكذلك ساقه، وكل شيء مما زعمتموه – والعياذ بالله – عدا وجهه؛ لأن اللهَ سبحانه تعالى قال: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ

رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أجابني وهو يتهرب من الاجابة، أو مجرد النظر في قيمة ما يعرض، فهو ايضا يعرف كنه هذه الاشياء، لكنها عنده قد غيّرت معناها، ودلائل اشتغالاتها، فقال:ـ

هذه الأشياء أساسا لاربط بينها وبين ما نقوله، قلت:ـ

كلام الله وحدة واحدة لا تتجزأ، واذا استدللتم به على صحة قولكم، يحق لي ايضا ان أنطلق منه لتفنيد هذا القول؛ مثلا أنتم تستدلون على مجيء الله مع الملائكة صفا يوم القيامة، كما فهمتم من القرآن الكريم...

كنت أنظر الى وجود القوم المجتمعين هنا، فأراهم متوترين، وأعصابهم مشدودة تنظر تارة نحوي وتارة نحو هذا الوهابي الذي بدأ يتخبط في حواره، ويفقد موازنة اموره، فقال :-

هذا ما قاله الله تعالى في القرآن.

قلت:ـ صدقني يا أخي ان المشكلة تكمن في فهمك للقرآن؛ ففيه آيات محكمات وأخر متشابهات، فلا تتبع المتشابهات فتزيغ، وإلا أين كان الله حتى يأتي؟

أجابني:ـ

هذه أمور لايجب ان نسأل عنها!

قلت:ـ هذا هروب يا أخي، ألستم من يقول أن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل ليستجيب الدعاء؟

عقب على كلامي بهروبه الى حضن التأريخ، وهم أكثر الملل التي تعترض على الارتكاز على المنهل التأريخي، وفي حقيقة الأمر ستجد ان جذرهم التكويني الأساس هو المعطى السلفي:-

هذا ما جاءنا عبر الصحابة والتابعين من أحاديث.

قلت:ـ

من حقنا ان نسأل: أين هو الله الآن؟

قال:ـ

نحن لم نغيبه، لكونه موجودا فوق السماوات.

:ـ وكيف يعلم بنا ونحن في الأرض؟

:ـ بعلمه.

قلت:ـ إذن جعلتم الذات الإلهية شيئاً وعلمه شيئا آخر؟

قال:ـ لا أفهم ماذا تقصد؟

قلت:ـ أراك تصرفت مع الموضوع كأنك تتحدث عن شيئين، وكأن الله عز وجل شيء، وعلمه شيء آخر! أو تعرف ما يعني الشرك الذي تصفون به الآخرين؟ الفصل بين الذات الإلهية والعلم، يعني ان العلم صفة حادثة، فأصبح الله عالما بعد ان كان «غائبا» أستغفر الله. وأما انها صفة قديمة، وهي ليست الذات كما تدّعون، هذا يعني الشرك يا أخي؛ لأنكم جعلتم مع الله قديماً.

وسيأخذنا قولكم الى ان الله مركب، والتركيب علامة النقص، والله غني كامل سبحانه وتعالى عما يصفه الجاهلون...

اعلن الحاضرون استياءهم من هذه الأفكار... سألني احدهم حينها:ـ

وماذا تقول انت حول هذا الموضوع، ومن اي مصدر أخذته؟

:ـ كلام أهل البيت عليهم السلام هو خير كلام تتقبله الفطرة، ولايرفضه صاحب العقل السليم، ويؤكد عليه القرآن، سأقول ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام :ـ

﴿أولُ الدين معرفته، وكمالُ معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة انها لغير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد عدّه، ومن قال فيمَ فقد ضمّنه، ومن قال علام فقد أخلى منه...﴾.

وحين أتممت الخطبة بدأت بشرحها لهم.

اندهش الحاضرون لدقة الكلام وبلاغته، واتفقت كلمتهم حول هذا الشاب، وما يجب عليه من مراجعة حساباته، حتى لايذهب الى نار جهنم. ولم يبقَ أمامه سوى سقط المتاع من الحوارات المستهلكة...

فقال:ـ شيخنا ما رأيكم في الصحابة الذين نعتبرهم نحن من أولياء الله الصالحين؟

قلت:ـ يا شيخ أول الدين معرفته، وأنت لم تعرف الله فكيف ستعرف أولياءه؟

التفت إلي وقد بانت الحيرة على ملامحه وقال:ـ

سنواصل الحوار في موعد آخر وجلسة أخرى.

****

شعرت بالألم، وسرت في وهاد الحزن يأخذني الحنو لهذا الفتى وأمثاله، ممن تاهوا في زحمة الأدعياء، فأصابتهم حمى البدعة، ليصعدوا صروح الوهم...

دموع التآسي تأخذني الى عوالم ترعرعت فيها، في بيئة سنية يتعبد أهلها بمذهب مالك، وهذا حال غالبية اهل السودان...

كنت أحلم ان يكون ابنائي في خدمة شرع الله ودينه، طبعا الدين الذي درسناه في مناهجنا الدراسية، والذي ورثناه من آبائنا رسخته العادات فينا دون ان نبحث فيه، حرام علينا ان نفكر في مسألة ما، ورجال الدين قالوا فيها رأيهم وانتهى الموضوع، فهم الذين يحملون الوعي دوننا، واليقظة والتفسير والتفكير الصحيح...

فلذلك شعرت بالحنو اتجاه هذا الكائن الذي يعيش ما عشناه؛ لا نسأل عن شيء، ولا نبحث عن شيء، بعيدا عما يروون وما يفكرون.

أتذكر من خلاله أهل السودان، والروح الدينية التي تمثل ميولا عاما عند شعب يمتاز بالفطرية، وبقوة ما يمتلك من وازع ديني، فهو يحمل حبا واضحا ومعلنا لأهل البيت عليهم السلام. وتظهر هذه المحبة في ثقافة اهل السودان؛ فالخلفية الثقافية السودانية خلفية شيعية، وللدولة الفاطمية في مصر اليد الطولى في نشر الاسلام في بقاع السودان، والذي

تنامى وانتشر بواسطة الطرق الصوفية التي تقوم عندنا اساسا على محبة اهل بيت النبوة والولاء لهم، واعتماد الدولة الفاطمية في جيشها كان على السودانيين، وجاء في قول ابن الاثير:-

إن مؤتمن الخلافة كان من السودانيين، حاول ان يقضي على صلاح الدين الايوبي، تربص الايوبي بالمؤتمن «جوهر» حتى قتله، فحشد السودانيون جيشا، وقصدوا حرب الأجناد، وكثر القتل في الفريقين، التف على بيوتهم احرقها على عوائلهم، وحين اتاهم الخبر انهزموا فأبادهم بالسيف، ولم يبق منهم إلا من شرد... فلذلك تجد ولاءً لآل البيت الى اليوم، ويظهر ذلك من خلال اسماء ابنائهم، ووجود الكثير من القبائل التي تدعي نسبها لأهل البيت عليهم السلام.

****

كنت أعرف نتيجة ما سيصل اليه هذا الشاب الذي لم يعرف كيف سيرمم ذاته؛ فالغطرسة لاتبحث عن دليل بل عن مكون ذليل لتأوي إليه بذلتها. النكوص خيبة قد تصحّي الناس لصرامة وضع ما، وهذه تحتاج الى عقل ثابت وايمان فواح.

كنت اعرف ان هذا الشاب لا يملك في المرة الثانية سوى ان يقف ليشتم ويسبب امام جميع الحاضرين! اندهش الواقفون لهذا الصراخ الذي تجاوز الساعتين، ثم لوّح بيده ليوصل الرسالة التي كلفوه بها، هدّد وتوعّد بقتلي قربة لوجه الله تعالى وجهادا في سبيله!

أردت أن أقول من أين تعرفون الجهاد وهو محرم عندكم عمليا، وخاصة ماكان ضد الطواغيت؟ لكني التزمت الصمت، فهو يمثل عندي أحد أهم الملكات الإدراكية مع وجود القدرة الكافية على الرد، وقد أدرك المحفل المجتمع مرتكزات البصيرة التي جعلتني اتذكر معاناة الأمة، وجهاد رسولها الكريم، وصبره العظيم على أذى كفار قريش...

صبيان مكة يحملون حجر الضغينة بالجهل المتردي على براءة مقتولة، اغتالها

جشع الكبار، ليرموا بها وجه رسول كريم ويلاحقونه أذى... الصلاة والسلام عليك يا رسول الله... هاهم جهال قريش ما زالوا يهدرون دم من يريد السير على خطواتك.

علمتني لغة التحاور الكثير من الأمور التي كانت تنقص خبرتي مثل الصبر والتصابر، وعدم المحايدة عن الحقيقة، حتى لو قامت على حساب وجودي، ومن ثم السعي لابراز المعنى الاسمى للنوايا والابتعاد عن المخاشنة...

ولكي أتقرب الى ذهنية الناس عليّ ان أبيّن مكونات البيئة التي ترعرعت فيها.

انا من شرق السودان من قرية مسمار، ولدت فيها وسط اسرة متواضعة انتقلت من الشمال، اسمها منطقة «الرباطاب» وهي مجموعة من القرى المتناثرة حول نهر النيل، وقريتنا تسمى «القربة».

:ـ هل انت من قبائل الباجا او الهدندوة؟

:ـ نحن أصلا من الشمال وتحديدا «الرباطاب» وانا اتحدث عن معلم من معالم الطفولة، كانت الذاكرة تذهب صوب الحلم الذي عشته حقيقة؛ إذ حملت صباي الرعاية التي كان يحوطني بها المجتمع، ومحبة الناس ودلالهم، فأنا أبن شيخ القرية وامام مسجدها، والمثل الأعلى عند الجميع.

كان أبي حين يجلس بين الناس يصغي الجميعُ إليه، وهذه المكانة كانت تعطيني الإحساس بالأمان. أسأل نفسي: والآن من سيمنحني الأمان أمام تهديد وهابي الهوية؟

فأجيب: لابد أن هناك شيئاً ما سيتكفل بذلك.

من منحني ما أمتلكه من ثقة بالنفس، والأمان والمواجهة والتضحية؟

ربما حين كنت صغيرا، أجهل لماذا يوقر الناس أبي ويحترم بيتنا؟

لكني بدأت بعدها أفهم الحقائق؛ فوالدي من نسل العباس عم النبي ﷺ ويسمونهم بـ«العبابسة»، ويـروون أن الرسول ﷺ قال بحقهم الـشيء الجميل، وعند«العبابسة» كان والدي واخوانه هم الخلفاء المتصدين لجميع القضايا والأمور الدينية، إضافة الى ارتباطه بالطريقة «الختمية» التي تعتبر من الطوائف الصوفية الكبرى

في السودان.

وكان والدي من المقربين لمرشدها مع قوة شخصيته وتدينه والتزامه، وكان يعطي «المحاية» وهي أوراق يكتب عليها أدعية للشفاء...

الذكريات لا تنام، لكنها تثب لحظة اليقين، وكل متقد في شجر العنفوان، يصير عند النضوج بشائر النجاح، تعود قبلا ونصائح تبعدني عن الغرور، وتحذيرا من حسد وعين... وذات يوم حملوه الى مدينة «بور تسودان» مريضا، وعادوا يترقبون الصمت الذي يذبح أوردة الانتظار.

لقد فقدنا شيئا عظيماً، وهج نور يفيض بعاطفته على أهله، جاء محمولا على نحيب ودمعة ثاكلة، لينقلب البيت الى حزن لا يرحم. هي النفس تتوسل الذكريات كي تستدرج الرقة والبهاء عنوان رجاء، فهذا الشاب حاول أن يثير في الغضب كي أصرخ مثله لتضيع الرؤى بين الصراخين...

انتقالنا من القرية الى المدينة قد أثر تأثيرا كبيرا على تفاصيل يومياتي التي حملت اهتماما اجتماعيا يفوق الاكاديمي؛ فلذلك صرت اعتمد على تجربتي الحياتية سواء في المرحلة الجامعية أو بعدها، أصبحت رئيسا للاتحاد العام للطلاب السودانيين بالولاية الشمالية، لعلي أقدم شيئا للاخرين.

قد يتصور البعض اني أقسر ذكرياتي في محاور النقاش، لكني ارى انها مهمة لمعرفة دقائق المحتوى التكويني لتجربتي مثلا لم يكن دفاعي عن الشيعة، بمعنى انا رجل شيعي مثلما تصور الكثيرون بل هو دفاع عن الحقيقة، فأنا ما زلت أعيش ليلا مشتعلا بالتأمل والقراءة والبحث، صراع في أوج اشتعالاته منحني حيرة اعتمرتني لمدة عامين أو اكثر.

التقيت ابن عم لي في إحدى المرات حيث كان يسكن بالقرب منا، ومن محاسن الصدف اني ذهبت عنده ضيفا، دهشت من امور كثيرة أراها لأول مرة في حياتي، يعيش وحدة ملائكية؛ يا الله... أراه منشغلا ليل نهار بين الدراسة والتحليل، وكل هذا الفقر

والتقشف والألم أراه سعيدا دون أن يفكر يوما بالوسائل المادية، لم أسمعه يوما يتحدث عن اي شيء له علاقة بالماديات، وكان يختصر وجبات طعامه في اليوم بوجبة واحدة، أدهشني هذا الإخضرار الروحي المزدهي تقاوة وصلاة.

كل شيء فيه يحمل نداوة التأريخ، وكأنه أحد رجالات بدر، أتنفس في حومته السكون الوقور وعبق الوجدان... سمعته ذات صباح يدعو الله بكلمات لم تمر على أذني يوما، قلت لنفسي: قفي لحظة، ماذا يقرأ ابن العم، اشياء لم اسمعها من قبل، مناجاة ضمير لا أعتقد ان هذه الكلمات لبشر عادي، كأنها من أقوال الرسول الكريم ﷺ وعي معنى لم ندركه لا في منهج دراسي، ولا في كتاب، قلت وكأني أتوسله:

:ـ يا أبن عم ماذا تقرأ؟

:ـ انه دعاء الصباح لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

أقف مبهورا، يثيرني الحديث في هذا الشغف المؤمن يقول أبن عمي:ـ

البحث عن سبيل النجاة مسؤولية لابد أن ننهض بها سعيا وبحثا ووعي إدراك، لنسأل ونتحاور ونتناقش، نعرف قيمة ما نؤمن به، وحاول أن تبتعد دائما عن جدال تقوده فوضويات لباقة ميتة.

قلت:ـ لا تستغرب يا ابن عم، فكل شيء فيك يثير استغرابي، بدءاً من غرابة الدين الذي تعبد به الله تعالى، أرى فيه أشياء غريبة لم أرها في حياتي، ابتسم قائلا:ـ

قبل أن ندخل في أي حوار عليك أن تعرف أني رجل جعفري شيعي اثنا عشري من الشيعة الامامية.

سرعان ما سرت ارتعاشة أثارت غضبي، ماذا يقول ابن عمي، انه شيعي؟!

مسألة غريبة حقا... انا ابن عمي شيعي؟ صرت أشعر أن مسؤوليتي تقتضي أن أهديه لسبيل المعروف، وهكذا عزمت على مواجهته بالنقاش الهادىء المطمئن، عساني أرفع عن قيود التأثير الذي سحروه بها، لابد أن نعيد له صوابه ليعود معنا، كما كنا متمسكين بمذهب أهل السنة والجماعة، هذا هو ما كان عليه آباؤنا، ولابد أن نكون على

الأثر سائرين.

بربكم كيف يستطيع الانسان أن يتمرّد على مذهبه، وعنوان تربيته ووصايا أهله وناسه؟ حزنت على ابن عمي كثيرا، كيف انزلق الى مهاوي الجنون؟

فهو يقول:ـ لابد اولا من سبر اغوار التأريخ، والتعرف على مجريات الحوادث فيه.

قلت له في وقتها:ـ لماذا نبحث في التأريخ؟ وماهي الفائدة المرجوة من اثارة مواضيع من زمان غابر؟

أجابني بشيء من اللباقة التي أذهلتني، ربما كان المعنى الذي عرضه هو المعنى الذي لم اتوقعه:ـ

الخوف من الماضي اما بسبب انحراف فكري أو جهل؛ فالقرآن الكريم ركز على التأريخ لنأخذ فسحة من العبرة والتفكر والتدبر، البحث عن اختلافات الامة لابد أن يبدأ من الجذر، أي جذر هذه الانحرافات، وخاصة ما يفصلنا عن زمن الرسالة قرون عدة، نحتاج فيها التأريخ لفهم شريعة السماء، فكل ما عندنا وصلنا من التأريخ، ولهذا علينا البحث فيه وعدم الوقوف عند حيثيات التأريخ، تجعلنا نساوي بين الرموز الايجابية والسلبية، وتقديسنا للسلب هو الذي اعطى الشرعية لكل الطواغيت، ولا يمكن إلغاء التواريخ خلاصا من المسؤولية او الانتقاء بأهواء... هم يخافون الواقع التأريخي، لكونه سيفضح مآسي الأمة، ولا ترجيح للشخصيات في ميزان الحق.

****

وقفت متأملا ما يقوله ابن العم، فإلى الآن هو لم يمسَسْ شيئاً من معتقدي ومن انتمائي، وما نشأت على الاعتقاد به... وهو رجل أذهلني بما يمتلك من احترام لكل معتقد، لكنه يناقش الفحوى ضمن مرتكزات الجوهر الاسمى، وإلا فما الضير من قراءة التأريخ، وقد وقف عنده القرآن كثيرا، فروى لنا قصصا وحكايات أمم انقرضت، وكذلك يذكرنا برموز واسماء، وينقل لنا وقائع كثيرة، لكي يثبت لنا ان سنة الصراع

بين الحق والباطل موجودة ومستمرة، ولا يوجد حق نسبي ولا باطل نسبي، وجميع الصراعات كانت تدور بعد أن تأتيَهم البينات.

يقول سيد قطب: «لم تغنِ وحدة الرسالة عن اختلاف اتباعها حتى ليقتتلون من خلاف»، والقرآن يمنحنا الرؤى الواضحة، من خلال رموز قادة اتبعوا أهواءهم بعدما بلغت المنازل الرفيعة مثل قصة «بلعم بن باعوراء»، عالم من اتباع موسى عليه السلام بعثه الى ملك مدين، يدعوه الى الله فاقطعه وأعطاه، بلغ «بلعم» درجة من الايمان والتقوى والورع حتى أعطي آيات الله والأسم الأعظم ثم خان! هذا يعني ان القاعدة الأساس تنسف العدالة المطلقة، والتعايش ليس المقياس الحقيقي، وانما الاستقامة والتقوى والالتزام.

كما وردت ايضا قصة السامري الذي انقلب على خليفة موسى عليه السلام والسامري هو شخص ليس عاديا بل كان من أصحاب موسى، وبلغ مرحلة عظمى، وحظي بمشاهدة جبرئيل، واستطاع بعد ذلك أن يضل بني اسرائيل، وليس في الصحابة من نال مثل هذه المرتبة.

****

قلت:ـ يا ابن عم اعذرني، فكلمة شيعي تقابل لدى الكثير من الناس بالسب والشتم!

أجاب:ـ هكذا علموهم، فرضوا عليهم سياجا من الجهل، فإذا عدنا الى معاوية حين جعل سب علي على المنابر فريضة من فرائض عرشه، نجد اليوم امتداد الحالة ترميم الصراع الأيدلوجي ليتغير العنوان فقط ويسب الشيعة على المنابر اليوم، والناس هكذا هم دمى تتلقى الأوامر من احبارها تحت مظلة السنة والجماعة...

وأي سنة هي وأي جماعة؟

واما لو بحثت في التشيع ستجد معناه المشايعة والمناصرة... يقول ابن خلدون:

هم الاتباع، ومنهم من يرى ان الشيعة تكونت بعد وفاة الرسول ﷺ، ويرى اليعقوبي: ان المتخلفين عن بيعة الخليفة الأول هم البذرة الأولى للتشيع؛ أمثال سلمان الفارسي، وابي ذر الغفاري، والمقداد بن الاسود، والعباس بن عبد المطلب... ومهما اختلفت الآراء؛ فالحقيقة واضحة ان التشيع ولد في عهد النبي ﷺ وهو الذي غرسه في النفوس، ومصادر السنة تؤكد هذا الكلام، راجع لو شئت الدر المنثور للسيوطي، وأبن حجر في الصواعق المحرقة، والقندوزي الحنفي، وتفسير الطبري، وروح المعاني للآلوسي، وكفاية الكنجي للشافعي، وغيرها الكثير من المصادر.

:ـ أجد الكثيرين يربطون التشيع بالفرس؟

قال أبن العم الهادىء الذي لا يتزعزع، والعجيب ان هذا الرجل لا يُثار ابدا:ـ

أولا ان التشيع كان قبل ان يدخل الاسلام الى فارس، وثانيا اغلب علماء السنة من فارس كالبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والرازي والقاضي البيضاوي وغيرهم من فطاحل اهل السنة والجماعة.

قلت لأسأل عساني استطيع ان أعبر عن المكنونات التي تقلقني، فأنا احتاج مايقوّي العزيمة ليكشف اين تكمن الغواية معنا، هل في الماضي الذي نهلنا منه تربية نشأة ووراثة أهل وناس وإرث كان يسطع شعارات في ذهنية كل واحد منا، أم في هذا المحتوى الذي داهمني على حين غرة حاملا معه السهر والقهر، وأوشكت ان أذوب وسط بحوث مضنية، وتفكير يرهق أجيالا:ـ

انت الآن تركت ما كان عليه اهلك والناس، وأصبحت شيعيا، فما هي الضمانات التي تمنعك من تغيير مذهبك غدا؟

:ـ انا من انصار الدليل، وقد سعيت بكل جهدي بالبحث، واقتنعت بأن الطريق المستقيم هو مذهب أهل البيت عليهم السلام، والأدلة االتي يسوقها أصحابه مما اتفق عليه جميع المسلمين.

:ـ لكن لماذا لم يكتشف غيرك هذه الحقيقة؟

:ـ من قال لك اني الوحيد الذي توصلت الى الحقيقة، ثم وصول غيري او عدمه ليس دليلا على صحة أو خطأ ما توصلت اليه، يقول الله سبحانه تعالى: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ و﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

****

أشياء كثيرة تأخذني صوب المعنى الذي صرت أخشاه، عدم انتشار التشيع لايعني بالضرورة بطلانه، والاسلام نفسه كدين لم يكن منتشرا مع ذلك هو الحق... ما اخشاه اكبر من حوارات اطلقها هنا او هناك دفاعا عن السنة او انتقاصا من الشيعة، هو الخوف الذي بدأ يكبر مع كل خطوة وينصهر في محنة سؤال او تجاويف جواب، رحت اسأل:ـ

هل تريد مني الآن ان أصدق هكذا وبكل بساطة، ان آباءنا واجدادنا الذين عرفنا تدينهم كانوا على خطأ أو على جهل؟

وطريقهم هو غير الطريق الذي أمر به الله؟

فأجابني بكل هدوء:ـ الله أعلم، لكن القرآن يرفض ان يكون المتكأ الاساس في الاعتقاد هو تقليد الآباء والأجداد...

****

أصبح الشعور لدي يذهب اتجاه تعاطف واضح مع الدليل... وهذا لم يكن لصالحي، هكذا كنت أفكر؛ فمن العيب ان أخسر امامه كل ماحملته زاد إرث أعتز به... لابد من مباغتة تنهي الثقة التي يتمتع بها، أو اشياء من هذا القبيل، فأنا لست سهلا لهذا الحد، وامامي مكونات معتقد افهم كل مفرداتها، وتتطلب المناورة تغيير وجهة الحوار، فسألت:ـ

ماذا تقول في الشيعة؟

:ـ أمة ترى ان هذا الدين الخاتم لايؤخذ إلا عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام.

أجبته ساخراً:ـ

كلنا نتبع رسول الله ﷺ ولا أحد يرى أنه خلاف ما جاء عليه افضل الصلاة والسلام.

:ـ لا علاقة تربط هذه المسألة في محاور الادعاء، بل يتطلب الامر اثبات الدليل، نحن كشيعة نرى ان المسألة الاساسية التي ابتليت بها الأمة، تتلخص في تركها معين الوصاية ومن مستلزماتها الخلافة السياسية، وأما المسعى الآخر نجده عبارة عن خلط الحق بالباطل.

قلت:ـ يا أبن العم الذي أريد معرفته حقا هو ما جدوى البحث في قضية مرت عليها قرون، وهل يفيدنا ان كان الخليفة الاول أو الرابع؟

فأجاب بتمكن واضح:ـ

تحليل جذر المشكلة يعطينا اسس الخلاف، ولا يمكن ان نتجاوز المرحلة دون فهم مكونات هذا الجذر التاريخي.

المسألة لاتعني عندي البحث عن شكل من اشكال التوافق او الإقناع، بل تأخذ ابعادا أخرى هي حمية الانتماء، قلت:ـ

محور القضية انكم تشككون في ولاء الصحابة للرسول ﷺ ؟

أجابني:ـ لسنا في مقام التشكيك في أحد، لا تعنينا الأسماء والمناصب والرتب، نحترم من اتبع الحق، ولا نأخذ ديننا ممن خالف النهج وخان، مهما كان ومن يكون.

****

يخرج الانسان عن طوره أحيانا، وخاصة حين تهتز كل قناعاته التي تربى عليها العمر كله، ونشأ بمعيتها وفجأة اذا به يُفاجأ بمن يشكك في كل تلك النظم التي ورثها عن اب وعن جد، والمشكلة الأدهى حين يتبين له ان تلك الشكوك هي تصيب عين الحقيقة، وهكذا...

:ـ كلما آخذك الى خصوصية موضوع تذهب بي الى عموميات مفهومة، ليس من المعقول ان كل الصحابة الذين بايعوا الخليفة الاول هم خالفوا وصية الرسول ﷺ،

أتدري ماذا يعني ذلك؟

يعني الكارثة، يعني ان تشكك في كل ديننا، فكيف تجوزون ذلك لأنفسكم؟ وأرجو منك كصديق وابن عم ان لا تستعمل التقية المعروفة عندكم.

قال بهدوء غريب يشوبه الحزم:ـ

أولا: عليك أن تدرك مسألة مهمة أن التقية ليست خصيصة شيعية، بل هي مادة شرعية من الكتاب والسنة، ولها مجالات غير معنية باستعراض التحاور والتناقش في جوهر المعنى، لها مجالها، وهي ليست من المسائل الواجبة مطلقا بل لها مواردها وأحكامها الخاصة، ومن ثم انا لا أمثل كل الشيعة، والأمر لا يصل الى مستوى التشكيك في الدين، إلا اذا كان الدين عندك ملخصا في الصحابة.

:ـ أليس هم من نقلوا لنا الدين؟

فقال:ـ يدور البحث الآن حول نقلهم، وهذا أول الكلام وبيت القصيد، أنتم تجرحون الرجال في علم الجرح والتعديل، وتبدأون عملية معرفة احوالهم من القرون المتأخرة بعد عهد النبي ﷺ، ونحن نبدأ ممن كان حوله لاختلاف درجات الانتماء، ففيهم الخائن والمنافق والجاهل ايضا، ومن الخطأ ان تقول ان الجميع بايع الخليفة الأول، وهناك الكثير من الصحابة اعترضوا وكان أولهم الامام علي عليه السلام.

****

عندما تحاصر الحقيقة انساناً لا يريد أن يعثر على الحقيقة، بل كل ما يبحث عنه هو الاقرار بما لديه، هذا هو العناد الذي سيمنحه تفكيرا قد يخجل منه حين يستعيد في ذهنه صور الحوار، قلت:ـ

لو كان الأمر حقا كما تدّعون، لنصر الله علياً وخذل الخليفة، وهو دليل كاف على ان الله سبحانه تعالى اختار للامة الخليفة؟

أجابني وأشد ما روعني لحظتها انه ابتسم، وكأنه أراد أن يقول لي: هذا هو كل

ما أنت عليه.

:ـ بعودتك الى هذا التهميش الخطير ستلغي الكثير من قواعد دينك اولا، فها انت ترفض فلسفة الابتلاء، وهي فسحة امتحان يهبها الله للانسان، وهذا الذي رحت اليه هو جزء من فلسفة الجبر التي تسقط عمليتي الثواب والعقاب، ونتيجة الفحوى ان نستسلم لمن يتحكم برقابنا، ونعتبر سلطته أحد الأدلة القاطعة لشرعية حكمه.

****

لم يبقَ امامي سوى ان انفض كل غبار الأزمنة، وكل ماقالته المجالس من شكوك، وان احمل كل خفقة في هواجسي لأطلقها في وجه هذا الابن العم:ـ

انكم تغالون في أهل البيت عليهم السلام وتقولون انهم معصومون، وتبيحون زواج المتعة، وتجمعون في الصلاة، وتصلون للحجر، وهذه رأيتها بعيني رأيتك تسجد على حجر!

يا لبؤسي وأنا أنظر إليه لحظتها، وهو يواجهني بالصمت، زعزعت ثقتي بنفسي، ثم قال بهدوء، وقد قتلني هدوؤه العجيب:ـ

هذه فروع سنناقشها سوية، لكن عليك اولا ان تركز الأمر حول الأصل، نحن لا نريد أن نخوض معمعة جدال لا نفع فيه، نريد ان ننتفع من لقاءاتنا، فأريد منك ان تبحث بتجرد وحينها ستتوضح لك جميع الأمور.

****

فكرت جديا في البحث، لكن ليس كما يظن ابن عمي من اجل ان اقتنع بشيء من هذا الذي يتصور له وحده، وانما سأبحث جادا من اجل أن امتلك أدلة أقوى، أدحض بها حججه؛ فالمسألة عندي أخذت صيغة اثبات وجود، وسنرى من منا يستطيع ان يهزم صاحبه، ولذلك صار عليّ ان اتخذ قرارا جريئا، ان ابتعد عن أي نقاش معه؛ كي لا أثير أي مشكلة، ومن ثم لأحصن نفسي من أي تأثير بهذه الأفكار الغريبة، والتي يتبناها ابن العم، وله من الجواذب المنطقية تجعلني منبهرا بها...

وهكذا صرت أمرّ على ابن عمي أسلّم عليه، وأتحدث معه في الأمور الحياتية،

دون ان اترك مجالا لأي موضوع من هذه المواضيع التي ابحث فيها، وفي احدى الزيارات العادية لفت انتباهي صوت خطيب ينبعث من جهاز التسجيل، صرت اتقرب اليه اتنصت الى مايقول، ذبت في روعة تلك الكلمات، كان يقرأ بعض المقاطع من خطبة الزهراء التي وردت في مصادر السنة والشيعة...

أي عالم هذا الذي أطوف به الآن؟

لقد اتخذت قرارا لحظتها مع نفسي، أن ابتعد عن القضايا الخلافية المذهبية، ولخصت القضية كلها في وجود اخ وابن عم تشيّع، وسألت الله أن يهديَه، وكنت أساسا أتحاشى من الدهشة والألم الدخول معه في اي نقاشات تعكر صفو قرابتنا، لكن هذا الخطيب يحملني الى مساحات من الدهشة والألم، وأنا استمع لخطبة الزهراء عليها السلام، يتدفق شعاع كلماتها الى اعماق وجداني، وهي بالتأكيد لا تخرج من شخص عادي، ولا من عالم مجتهد، بل هي معجزة تتحرك بسيل من كلمات بليغة، عبارات رصينة، حجج دامغة، وتعبير قوي، تركت نفسي لها، واستمعت لها بكل كياني...

لم اتمالك نفسي، فأنهمرت المدامع صارخة في الوجدان، وتعجبت من هذه الكلمات القوية الموجهة الى خليفة يمثل مكانة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، ومما زاد حيرتي انها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فماذا حدث يا ترى؟ الأمر غريب بعض الشيء، ويحتاج الى وقفة طويلة، رغم أني لم اتحقق بعد من صدق الخطبة، لكنها هزت مشاعري، وقررت الخوض بجدية من اجل الحقيقة، وليس من اجل جدل اعتمره مع ابن عمي...

مع اول دمعة نزلت من عيني، صرت واثقا من جدية مشروعي القادم، انتهى الشريط، كفكفت دموعي، لا أريد ان يحس بها ابن عمي، لكن لو تسألني: لماذا أخفيت دموعك؟

سأجيبك: لا أدري!

ربما اعتزاز بالنفس، لكني حين واجهت ابن عمي، تحول هذا الخشوع الى ثورة ضده، وضد هذه الأفكار المؤلمة، ربما كانت هي محاولة من محاولات التنفيس، قلت:ـ

أ كان كل ذلك من أجل قطعة أرض؟

:ـ عليك ان تعرف اولا من هي فاطمة، ثم تبدأ البحث، خذ صحيح البخاري، وناولَني الكتاب ليقول: اقرأ... فكانت المفاجأة التي لم أتوقعْها...

ينقل أن الخليفة الأول يقول بأن الرسول ﷺ قال له: لا نورث ما تركناه صدقة... فوجدت عليه فاطمة الزهراء عليها السلام ، وأورد مسلم عبارة بديلة «غضبت فاطمة»، لا يمكن ابدا وبأي شكل من الاشكال نكران هذه الحادثة، لكونها مدونة ومثبتة في متن اكثر كتب اهل السنة، والحادثة لم تكن خلافا عابرا أو سوء تفاهم بسيط...

ونلاحظ ان غضب الزهراء لم يكن ليوم او يومين، بل استمر الى وفاتها، ونلاحظ ايضا ان الخليفة لم يمنح الفرصة ليصلي عليها، وقبل وفاتها، وفي إحدى محاولات الصلح تحول وجهها عنه الى الحائط، وتشهدهما بقول الرسول ﷺ : ﴿**ان رضى فاطمة من رضاي، وسخطها سخطي الذي يعني سخط الله**...﴾ أشياء غريبة تمر على بصيرتي، فتسري رعشة كبيرة في جسدي، وأنا اقرأ قولها، وهي تقول لهما: واللهِ لأدعون عليكما في كل صلاة أصليها...

بعد هذا الذي أتعرف عليه... أقرأه وأسمعه وكدت أراه... لا أدري ماذا افعل؟ وكيف افكر؟ ان من أولى أولويات الشجاعة، أن أتخذ قرارا، أن لا أجعل بين نفسي والحقائق حجاب الخوف أو الرهبة أو التبرير... بحثت فوجدت فاطمة في القرآن، وفي اكثر من مكان، وآية، وموقف، وقفت منذهلا امام آية التطهير، والشورى، والوضوح العالي في سورة آل عمران، لتمثل الزهراء كل نساء الأمة، وكانت المباهلة، وكانت احاديث الرسول الكريم بحقها والنبي ﷺ بواقع الايمان لا يتكلم عن عاطفة مجردة، ونلاحظ قيمة التركيز على غضبها وسخطها ورضاها، وكأنه – بأبي وأمي – يهيئ الناس لأحداث ستُغضب فاطمة، وقد خصها بهالة قدسية تحرم على الآخرين هتك هذه الهالة الرسالية، مثلما تنبأ بلعبة معاوية مع المصاحف، فركز اهمية مقارنة القرآن بعلي عليه السلام، وكذلك في مقتل عمار.

فجعلنا ﷺ، ان ننظر الى غضب الزهراء بقدسية، والى موقفها بتعقل، انه غضب من اجل الحق، وموقف صدق ضد الانحراف، غضب مقدس، وكان تنبيها شديد اللهجة لمن يؤذيها ويغضبها ويسخطها...

وأقرأ بتعجب احاديث وبشارات وفضائل وعصمة تفطم محبها عن النار، وسلام محمد سلامها وخصام محمد خصامها... الله اكبر كل شيء فيّ يهتز امام هذا التأريخ الذي يريد اهلنا طمسه ودفنه... فالتاريخ الاسلامي كتاب ثقافة حفظ لنا تراثا ضخما، نستخلص منه عبرا، فكان موقف فاطمة الزهراء يعني شيئا في مسيرة تحديد الهويات... امرأة صاحبة عصمة، رفضت ان تبايع للخليفة، وعارضته وتركت آثار معارضتها الى الآن؛ إذ انها أمرت بدفنها سرا، ولم يكشف مكان قبرها الى اليوم...

ومعرفة شخصية الزهراء مثلما قال ابن عمي، ستعطي صورة الحجة الأكمل في الموضوع... ذكي ابن عمي، فقد تجلت عصمة الزهراء بوضوح ضمن جميع مصادر الاسلام القرآن والسنة والرسالة. ثم هناك مسألة نجحوا في خلط اوراقها، ففدك ليست ميراثا اساسا، انها طالبت باسترداد فدك التي لها ملكيتها؛ فالموضوع هو موضوع ملكية خاصة، طلبوا الشهادة من صاحبة عصمة بملكية فدك، ومن ثم طالبت بارث النبي ﷺ ويعني هذا علينا أن نفصل بين قضيتي سلب ملكية الزهراء عليها السلام، وقضية انتفاء الارث الذي يقول عنه ابن ابي الحديد: لم يرو هذا الحديث سوى الخليفة الاول، وأعظم المحدثين كانوا مع رأي ابن ابي الحديد مع وضوح مرجعية الاعتراض، حيث كانت اغلب الاستشهادات قرآنية للاحتجاج على قرار المنع.

من المؤكد ان «فدك» تعني عند فاطمة الزهراء اكثر من كونها قطعة ارض، وهي التي بشرها النبي برحيلها المبكر عن الحياة، بل ارادت ان تثبت لا شرعية هذه الحكومة، لقد حملت الزهراء صوت المعارضة، وحملت مشعل الحقيقة، ففدك تعني التعبير الثاني عن الخلافة الاسلامية...

لقد أذهلني التأريخ بأحداثه الجسام، ماذا لو تحدث اي شيعي عن الباب والمسمار والضلع المكسور واسقاط الجنين، لكنت أتهمه بفرقة الدين والتجاوز على الخلافة الاسلامية، وهذه القراءة الذكية لأبن عمي الذي جعلني اذهب لأكتشف هذه القضية دون تدخل او تأثير أحد.

أقف مذهولا امام مشهد استشهادها، تركت صرخة تجلجل لتحرك الضمائر الميتة، وتنفض غبار الغفلة والشهوات والتكبر، لم اكن اتصور بأني سأجد هذا الزخم من الأحاديث والروايات التي تساند الشيعة.

بعد حواري مع ابن عمي الشيعي، حاول هو ايضا أن يأخذ منحى آخر معي، محاولا الابتعاد عن المناقشات والمحاورات التي تقودنا ربما الى شيء من الجدال، فأعطاني بعض الكتب ومنها كتاب دكتور مستبصر، واخر كتاب المراجعات، وهكذا طفقت أتعمق في مسألة الشورى ومفهومها عند السنة والشيعة.

سألني أحدهم في محاورة عابرة من تلك المحاورات التي كانت تحدث دائما في تجمعاتنا، وقد كان سلفيا:ـ

ان مناظرة كتاب المراجعات قصة خيالية لا واقع لها!

قلت:ـ تبقى الأدلة التي وردت فيه هي جزء من حقيقة لابد أن تناقش، ناقشوها ان امتلكتم الحجة؟

وطبعا لا سبيل لهم سوى الصمت امام المواقف الفكرية الجادة، الشخصيتان بارزتان في سماء الأوساط الدينية عند الشيعة والسنة، والمهم ان مفهوم الشورى عند أهل الجماعة غير واضح، تارة يطعنون بها وتارة اخرى بشرعية النص.

الشورى عندهم اجتهادات، جوّزوا التعيين كما فعل الأول؛ إذ عيّن الخليفة بعده، وحتى الشورى الشرعية تحتاج الى ولي أمر قيّم عليها، يجيبني أحدهم:ـ

لكن الرسول مات دون أن يترك وصية في أمر الخلافة.

:ـ كيف؟ أمن العقل أن يترك أمر الخلافة والامامة في أيدي الناس؟

:ـ وعليكم أن لا تنكروا الشورى السنة في خلافة عثمان

:ـ الواقع العملي يثبت ان الخلفاء جاءوا بالتنصيب وبلا شورى وحتى شورى السنة كانت بالتعيين

:ـ لقد طفحت كتب اهل السنة والجماعة بالاحاديث التي تبين ان أهل البيت عليهم السلام خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وحملة دين الله وغير المتمسك بهم ضال

:ـ الأمر لاينحصر في المحبة فقط انما موالاتهم واتباعهم بالخير والتسليم لهم لابد من اتباع المنهج كدليل على الموالاة.. والا فالامور واضحة

يقول أحمد بن حنبل ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب

فنقرأ عن حديث الغدير.. ﴿**من كنت مولاه فعلي من بعدي مولاه اللهم وال من والاه وعادي من عاداه**﴾

ونقرأ عن حديث المنزلة... ﴿**الا ترضى يا علي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي..**﴾

ونقرأ حديث الانـذار والـذي قال فيه رسـول الله صلى الله عليه وآله هذا أخي ووصيي وخليفتي فاسمعوا له واطيعوا.. ونقرأ حديث الراية.. ﴿**لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**﴾ ووجدت في حق علي آيات قرآنية واحاديث كثيرة ووصايا وحوارات كشفت المعنى الأسمى لشخصية علي عليه السلام ولذلك أصبحت المحاور النقاشية التي تقام هنا وهناك غير مجدية إذ امتلكها العناد و في محاورة من تلك المحاورات قلت اين هي المغالاة التي تدعون؟

:ـ لاعصمة سوى عصمة الرسول صلى الله عليه وآله

:ـ وهل انتم ترون للنبي عصمة ؟

:ـ نعم في امور التبليغ فقط

:ـ الشيعة يقولون بعصمة النبي المطلقة واحاديث عصمة الائمة مبينة ومثبتة

ـ فاقتران أهل البيت بالكتاب يدل على صحتها..تأخذنا النقاشات احيانا الى ضفاف الاستفادة والمنفعة ليضيف احدنا الى الآخر رأياً أو يثير رأياً لكن ان يكون المحاور مجادلا يرفض كل شيء لايؤمن به دون تروً او يعترض على كل شيء حتى دون ان يفهمه ومن هذه الشخصيات كنت اقابل الكثير وارى انهم يدفعونني الى الاتجاه المضاد لعتمتهم الى النور مثلا احد السلفيين في محاورة انتفض بوجهي

خبأ لي قدري سؤالا اراد ان يباغتني به

:ـ من قال لكم أن الائمة اثنا عشر ؟ ولماذ ا هذا العدد بالذات ؟ «وضحك بسخرية»

:ـ هذا الباب مفتوح لمعرفة الحكمةمن العدد... لماذا خلق الله سبع سماوات وسبعا من الارض..

عن جابر بن سمرة... قال رسول الله ﷺ يكون بعدي اثنا عشر أميرا كلهم من قريش..

أنتفض السلفي وكأنه قد مس بطائف من الشيطان

:ـ من اين لك هذا الحديث ؟

:ـ صحيح البخاري..باب الاحكام ، صحيح مسلم ، الترمذي ، مسند أحمد..

وراح علماء جماعة يعبدون دروبا لتصريف هذا الحديث.. فعددوا الخلفاء الراشدين ثم اضافوا الحسن بن علي من باب اللياقة ومن ثم وضعوا اسماء خلفاء بني أمية..

****

في كتاب ينابيع المودة.. عن جابر بن عبد الله الانصاري قال رسول الله ان اوصيائي وائمة المسلمين من بعدي علي ثم الحسن والحسين و الائمة التسعة من ذريته الميامين وآخرهم المهدي الذي يفتح الله تبارك وتعالى على يديه مشارق الارض ومغاربها... فصاح احدهم.

:ـ من الطبيعي ان هذا الكلام مصدره شيعي

قلت :ـ المصدر كتاب ينابيع المودة للقندوزي الحنفي في المناقب أما النصوص عند الشيعة فهي عن طريق ائمتهم متواترة واضحة بهذا الخصوص..

صرت اعتقد ان من يتحدث عن عدالة الصحابة هو من يريد اثارة الفتنة والفرقة واصبحت ارى الهروب العاطفي اللامنطقي هو التعصب الاعمى قيل للبراء بن عازب... طوبى لك صحبت النبي ﷺ فقال لاتدري ما احدثنا بعده .

****

قيل لأنس بن مالك :ـ مايبكيك ؟ فقال: لااعرف شيئا مما ادركت الا هذه الصلاة وقد ضيعت..

أما ماجرى في السقيفة فهو عبارة عن لعبة سياسية ومسرحية درامية وضع لها السيناريو وحيكت خيوطها قبل تنفيذها وكان المنطق الحقيقي فيها نعرات جاهلية..

قالوا عنها انفسهم انها كانت فلتة... واما ما حدث في دراما الشورى الستة فقد انكشفت الصورة الجلية للمعنى الكلي فحين طلب عبد الرحمن بن عوف العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين رفض علي عليه السلام الشرط الاخير لكونه يعتقد ان هناك فارقاً كبيراً بين السيرتين..

صرت اضحك على نفسي كلما أتذكر موقفي وانا أحتج على ابن عمي

:ـ ان كانت لعلي الكرامة التي تدعون فلماذا لايقلبها على رؤوسهم.. ؟

:ـ لو كان كل انحراف يواجه بالتدخل الغيبي لإرجاع الناس الى الحق لما كان هناك معنى للابتلاء ولا كان هناك اي معنى للثواب والعقاب.. ولا ادري والله اين كنا عن هذه الأفعال الشائنة التي هي بعض افعال معاوية منها اغتصاب الخلافة وقتل حجر بن عدي واصحابه لرفضهم سب علي عليه السلام ولجعل سب علي على المنابر سنة يتبرك بها في اقطار حكومته... سفك دماء الشيعة واستباحَ اموالهم واعراضهم وقطع اصولهم بقتل ذراريهم واطفالهم وحتى نسائهم واجتهاده بإلحاق زياد بن ابيه وخطط لوضع السم

للحسن عليه السلام ومن ثم أستخلاف يزيد وهو المعربد وقد شخص الحسن البصري هذه الموبقات كلها...لكن ما الفائدة وكأننا لم نقرأ شيئاً

أتذكر أيام كانت الرؤيا غير واضحة لدي ورغم ملامح الصواب التي بدأت تلوح لي تم افتعال شجار بين أحد السلفيين ومواطن شيعي إذ صرخ في وجهه

:- لماذا تذكر أسم معاوية مجرداً من الترضي أي دون أن تقول رضي الله عنه ؟

قال الشيعي :- أنت أفضل ام علي أبن أبي طالب عليه السلام ؟

أجابوه بعد فوضى شجار وقالوا بحذر

:- هو أفضل

قال الشيعي :- هو لم يترضَ على معاوية بل لعنه وحاربه بل قاتله ولو ظفر به لألحقه بأجداده

:- تلك دماء عصم الله منها سيوفنا فلنعصم ألسنتنا.... نحن نرى معاوية صحابياً جليلاً فعل خيراً عندما نصب يزيد خليفة فلذلك نعتقد أن خروج الحسين كان خطأ وأن لم يكن فقد تاب يزيد

قال الشيعي :- ومن عصمكم من تلك الدماء ؟ أخي كلنا مسؤولون عنها أنتم ونحن في موقف نعين الحق وننكر الباطل ثم من قال إنك عصمت نفسك ؟ لقد خطأت علياً والحسين عليهما السلام وكفّرت سيد شباب أهل الجنة وسبط النبي،احدهم قطع الحديث بعصبية هائجة.

:- يجب على المسلمين ان يقتلوا هؤلاء الشيعة اينما وجدوهم لأنهم فتنة

****

وهكذا يقتلون الحق بأسم الحق ويحجبون الحقائق باسم الفتنة وفي النتيجة هم لا يفترقون عن أسلافهم تربية تبنتها آل أمية قلت حينها اسمعوني

:- أنا لست شيعياً لكني قرأت عنهم الكثير وعرفتهم عن كثب أكثر من غيري

فقال لي السلفي

:- إنهم مشركون زنادقة يسبون الصحابة ويقولون ان جبرائيل خان الأمانة وأعطى الرسالة لمحمد وهي في الاساس لعلي بن ابي طالب كما أنهم يعبدون الحجارة قلت له

:- من الذي قال لك ذلك ؟

فأجابني مفتخراً :- نحن نعرفهم جيداً

فصرخت بلا وعي مني

:- ألا يمكنكم أن تنصروا الحق الذي تدعونه بدون أن تكذبوا وتفتروا على القوم... الشيعة مؤمنون بالله ويدعونه ليل نهار يوقرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر منا ويحترمون المقدسات الدينية فإذا كان يؤمنون بجبرائيل حامل وحي الرسالة فكيف يعبدون الحجر؟

ومثل هذه التهم صارت قديمة لا يصدقها أحد والناس أكبر وعي من أن تنطلي عليهم هذه الاكاذيب أرى أنكم لا تستطيعون الدفاع عن باطلكم إلا عن طريق الكذب كنت أظن أن الوهابية هم أكثر الناس ورعاً وتقوى وإذا بكم تكشفون لي عن حقيقة أخرى

فصاح واحدٌ منهم :- لقد سحروك

قلت :- وهذا ما قالته قريش للنبي عندما جاء بالقرآن من المؤكد أن من يراوغ ويكذب ويفتري لا يستطيع أن يرتقي بمستوى الدفاع عن شريعة السماء

****

قضايا كثيرة مرت علي أثناء البحث هزت وجداني لكن تبقى أبرز القضايا التي آلمتني كثيراً هي قضية الحسين عليه السلام ذروة الصراع بين الحق والباطل وأنصع صفحات الجهاد – تعلمنا في المدارس أن ثمة مذبحة حدثت في كربلاء بطلها الحسين بن علي لكن دون ذكر الأسباب أو النتائج وأهل الجماعة لهم قناعة كافية بفتوى شريح القاضي الذي

قال ملخصاً كل القضية... الحسين خرج عن حده فليقتل بسيف جده، هل هناك أبشع مما جرى في الطف؟

ولكن لم يحدث كل شيء بغتة أو هكذا دون جذر أو أساس بدأ من قساوة الخلفاء ومسائلتهم للولاة الشديدة والتي تحولت الى لين مع معاوية وليسميه الخليفة نفسه كسرى العرب حين رأى مظاهر البذخ والترف... فسهل عليه امتلاك امبراطورية مسلحة في الشام أدخرت لنصرة الباطل واطفاء جذوة الحق أينما ظهرت ولذلك سلت سيوفها في صفين ومن ثم ورث يزيد الحكم ليذبح ابناء الاوصياء

يقول أبن كثير كان يزيد صاحب شراب وشهوات وتارك صلاة ويقول صاحب الاغاني أبو الفرج الاصفهاني يزيد أول من سنَّ الملاهي في الاسلام. وهو أول من اظهر شرب الشراب والاستهتار بالغناء واتخاذ القيان والتفكه بالثروة والمعافرة بالكلاب والديكة..أسأل نفسي كيف لجماعتنا ان يخطّئوا الحسين – والنبي ﷺ يقول﴿**حسين مني وانا من حسين.. احب الله من احب حسينا**﴾ وقد ورد هذا القول في الصحاح والاحاديث المتواترة... وقتل الحسين يجعلنا نتسائل عن أسبابه وقاتليه وخلافة يزيد وهذا يعني التحدث عن معاوية... ويقودنا بالبحث عما اسموه بالفتنة في عهد عثمان.... تفاصيل مأساوية أدت الى قتله ومن معه من أهل بيته وكبار الشيعة ومنهم هاني بن عروة.. كانت انفعالات الذات الطموح نحو الحقيقة التي أحسها تزف عواطفي وكياني.. عوالم لا تستقر... عبرات تختص بها الرؤى التهيؤات التي علقت بذهن موهوم وافتراءات لا يعلمون موارد أحكامها – كالسجود على التربة الحسينية...

:ـ للسجود صيغتان.. السجود للشيء والسجود على الشيء... والسجود لغير الله لا يحتاج الى كثير عناء أما السجود على الشيء فلا يتحقق إلا على شيء والشيعة يسجدون على التربة وليس للتربة.. وفقهاء أهل السنة الاربع يجوّزون السجود على كل شيء بما في ذلك الارض- أما السجود على التربة الحسينية فهي من مسائل استحباب السجود لتكريس مفهوم الولاء وتعد وثيقة تاريخية حملت شواهد جريمة الامويين لكي

تمنع السلطة من اساليب المصادرة لقضية كربلاء...

هل بعد ذلك سأبقى أكابر...

لابد من الاسراع فالخطوة قريبة وأسف يهز الخاطر لحال من ابتعدت خطوته عن المنهج الدليل.. عرفت أن كلمات أهل البيت عليهم السلام .. نور لم أسمع بها عند الاخرين.. منهجهم تربية وتوجيهاتهم إحساس بمعنى خلافة الله في الأرض..

لم يشهد التاريخ أنهم تعلموا على يد أحد – بل علموا الدنيا فقهاً وعلماً..

وهل أبقى اكابر.. ؟ وأكرر مهاترات لا تنفع ؟

أجلس صامتاً دامعاً أقرأ نهج البلاغة والصحيفة السجادية.. أقرأ دعاء كميل فأتألم لهذه الأمة المحرومة من هذه الكنوز.. عرفت أن تشريع الله تعالى لا يخضع لمدى قبول المجتمع أو رفضه فلذلك رحت أقرأ في شرع الله كل ظاهرة يعاب الشيعة عليها – فلا بد من البحث عن سفينة تأخذنا الى بر الأمان.. فالبحث عن المعتقد السليم وفاء عهد وميثاق – يا الله ساعدني.. فبعد كل هذا الذي عشته هناك صوت يصيح بي اياك ان تنسى دين أبائك واجدادك لاتفعل فأدركت ان العملية ليست سهلة مادمنا نحمل التعصب تكبراً هناك للأسف الكثير من الاسبا ب تقف حائلاً ببن المرء والحقيقة..علينا ان نتجاوزها وأنا حاولت ذلك صحت يا ألله انتفضت مددت الخطوة بالروح فكان الانتقال عبر محطات التاريخ.. جعلني أقف عند الحظيرة التي مرت بها الامة الاسلامة فتفرقت شيعاً وأحزاباً لم يكن همي سوى الحقيقة دون الالتفات الى ما يعترضني من المشاكل.. ولقد حاول البعض أن يتهمني بالانتماء لأحزاب مستوردة وتارة باثارة الفتن وهكذا وأحسست بالبرودة تلف وجهي وبرعدة تنتاب اوصالي في يوم حار من أيام فصل الصيف الذي يتميز به السودان. يا رب اهدني الصراط المستقيم بحق الزهراء عليك بضلعها المكسور انهضني من هذا الصراع النفسي الذي كبلني أحسست بحلاوة الحقيقة ونور ينكشف أمامي وبهالة قدسية تنوِّر روحي وانزاحت تلك الحجب التي أثقلت كاهلي ليلمع برق الحقيقة امام خاطري.. وإذا بي أشعر أن أصعب لحظات العمر

هي وقت كشف عمق المأساة والتي كانت نتاجاً طبيعياً للجهل المركب الذي كان يعيش في عقولنا.. والهداية يعني عودة الانسان الى دليل الفطرة الانسانية الى الـــلـــه...

تم بعونه تعالى